وقفة مع استشكال تغير الفتوى

د. طارق عنقاوي

تفريغ وتنقيح : محمد صالح آل عزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين.

بدأت تكثر هذه الايام التساؤلات التي تتحدث عن موضوع تغير الفتاوى. فهناك حالة استغراب عند كثير من الناس. لماذا كان الشيء الفلاني يقال بانه حرام ثم اصبح يقال بانه حلال من نفس الشخص هذا التحريم والتحليل قضية بهذه السهولة اليس المفترض انها قضية دينية لها اصول تحكمها فيكون فيها نوع من الاستقرار والثبات وعدم التقلب والاستقلالية؟

كيف نشعر بالثقة اذا ازاء هذا هو الحال؟ اليس ما يجري دافعا ان يشك الانسان في كثير من الفتاوى التي تحرم بعض الاشياء هذه جملة من التساؤلات التي تسمع هذه الايام بل هناك بعض التساؤلات التي تذهب حتى الى ابعد من هذا بحيث تنتقل حالة التساؤل او الحيرة او حتى الشك من اناس معينين او قضايا معينة الى حالة شك عامة في العلماء عموما او في قضايا الاجتهاد فتوى عموما ربما حتى تبدأ النظرة الى الدين نفسه يدخلها شيء من الشعور بالحيرة والتساؤل واهتزاز الثقة. من جهة ان الشخص يتساءل اليس من المفترض ان يكون هذا الدين واضح؟ اليس من المفترض ان يكون سهل؟ لماذا اذن يقع الالتباس؟ ولماذا تبدو هذه القضايا قضايا معقدة؟ وعند يحاول الانسان ان يستكشف لماذا حصل هذا التغير او ذلك في الفتوى؟ ولماذا اصلا كانت هذه الفتوى تحرم كذا او كذا؟ فانه يجد نفسه امام تفصيلات كثيرة يطرحها المتخصصون وربما يصعب فهمها بالنسبة لشخص غير المتخصص فلماذا هذه الصعوبة؟ ولماذا هذا التعقيد؟ هكذا يفكر بعض الناس طبعا انا هنا تكلمت بلسان حال من يتساءل ولم اعلق حتى الان وهدفي من هذا التسجيل ان اقدم بعض التعليقات التي ارجو انها توضح هذه القضية وتجليها وتزيل الحيرة والتساؤلات المقلقة حولها

وسيكون ذلك من خلال عدة عناصر :

اولا سأتحدث عن حجم المسائل التي قد تشتبه على الناس وتسير الحيرة. هل تمثل من حيث الحجم اغلب الشريعة اقل الشريعة بحيث توصف انها نادرة مثلا؟ من المهمات في هذا الموضوع ظبط هذا الامر.

ثانيا نفهم سبب وجود مثل هذه القضايا اصل الخلاف في الشريعة لماذا يوجد؟ والسبب من جهة طبيعة عملية الاجتهاد والادلة الاجتهادية وخاصة موظوع فقه النوازل وطبيعته الواقعية

ثم ايضا سأتحدث عن موضوع ما يمكن ان نسميه البشرية ودورها في هذا الامر وهل تكون عذرا او غير ذلك ثم في ظوء ما سبق ساتحدث عن موقف الانسان. العمل الصحيح مع هذه القضايا هذا مجمل ما ساتناول الموضوع من خلاله.

اولا ما حجم هذه القضايا التي يعني يشعر بعض الناس انها تلتبس عليه وتسبب له اشكالات.

في الحديث النبوي يقول النبي صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما. مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام الى اخر الحديث. نلاحظ في هذا الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم وصف الحلال بانه بين ووصف الحرام بانه بين. واخبر بان بينهما امور مشتبهات. لا يعلمهن كثير اذا لابد ان لا ننظر لقضية المشتبهات وكأنها اصبحت كل الدين بل ان اسلوب الحديث مشعر بين الاصل هو البيان خاصة مسائل الاصول التي تمس الحاجة اليها اصول الدين معتقدات وكذلك حتى اصول الاحكام ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى كتابه بانه مبين وهدى ورحمة ونور واحكمت اياته. وحتى عدم علم كثير من الناس بالمشتبهات. ليس راجعا بالضرورة الى انها في ذاتها مشتبهة. بل هو قد يكون راجع لنقص العلم عند الانسان. او ضعف اجتهاده او تقصيره فتلتبس عليه هذه الامور.

ثانيا ومع ذلك بعض الناس قد يسأل لماذا توجد مشتبهة او بتعبير اخر لماذا توجد امور خلافية؟ لماذا بعض الامور المستجدة تثير الخلاف والجدل؟

اقول ان لذلك حكما كثيرة منها ان الله سبحانه وتعالى ابتلى العلماء ليجتهدوا ويتعبدوه بالاجتهاد وفي ذلك مجال لان يغوصوا في البحث في الشريعة ويتعمق فهمها ويتأمل احكامها ومقاصدها وعللها وهذا الذي انتج انتاجا فقهيا ضخما ثريا واعطى مجالا رحبا للنظر في المستجدات وقياسها وتخريجها على اصول الشريعة واحكامها ثم ان المكلف كذلك يبتلى بان يتعبد الله عز وجل بالبحث عن الحق وينتقي من يثق في علمه ودينه. فيسأله قاصدا الوصول الى الحق مبتعدا عن اتباع الهوى. ثم هذا وهذا المجتهد وغير المجتهد اذا بذلوا ما عليهم من الاسباب فانهم يكونوا مأجورين او على الاقل معذورين حتى وان في حقيقة الامر. وهذا من رحمة الله تعالى. اذ لو كانت الامور كلها كحد السيف ما وجد عذرا لاحد. وكان الكل مخطئ دوما اثم. ثم هناك ايضا مساحة العفو. روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تنتهكوها وسكت عنها اشياء من غير نسيان لها رحمة بكم فلا تبحثوا عنها. الله سبحانه وتعالى ولو اراد ان لا يكون هناك مسألة الا ونزل فيها نص خاص بها قاطع لا يحتمل ابدا ان يختلف في فهمه احد فهو قادر على ذلك سبحانه. ولكن برحمته جعل في هذه مساحة للعفو ويقترن ذلك بان يكون هناك اجتهاد. والاجتهاد عمل بشري. العمل البشري طبيعي ان يقع فيه تفاوت واخطاء حتى. فبهذا يتسع افق الانسان. فيكون نظره لهذه القضية نظرا واسعا رحبا يتسع لما فيها من مقاصد وحكم. وهذه القضية ايضا ارتبطت بمرونة الشريعة واستيعابها جميع الحوادث صلاحيتها لكل زمان ومكان فبقواعدها

العامة واحكامها المرتبطة بالعلل والمقاصد وما فيها من يسر وعفو وسماحة جال المجتهدون فيها ذو الفروع للاصول والجزئيات للكليات والمثيل لمثيله وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذه الامة خير امة اخرجت للناس تأمر وتنهى عن المنكر لا يمكن ان تجتمع بمجموعها على انها تأمر بمنكر او تنهى عن معروف لكن بافرادها ليس هناك عصمة لفرد معين فقد يقع الخطأ

وهذا ينقلنا للنقطة الثالثة التي من خلالها نتناول او نستمر في تناول هذه القضية قضية البشرية

يعني كما شرحنا في الكلام السابق هناك مجال للخطأ هناك مجال للتفاوت في النظر لنأخذ الموضوع ابعد من هذا هناك مجال حتى للاثم الانسان عندما يتصف بالعلم لا يعني ذلك بالضرورة انه صار معصوما من الخطأ معصوما من اتباع الهوى معصوما من ايثار الحياة الدنيا فاذا ليس غريبا ان يقع على لسان بعض المنتسبين للشرع امور قد تستنكر اما من جهة الخطأ غير المقصود او حتى من جهة اتباع الهوى احيانا وقد وقع ذلك في ازمنة خير من ازمنتنا فمن اين جاءت مثلا محنة خلق القرآن؟ وفيما امتحن ابن تيمية رحمه الله وسجن؟ وهذا لا يعني ان نفتح مجال سوء الظن في العلماء بل الاصل حسن ظنوا انهم مظنة التقوى والورع ما داموا فعلا متصفين بالعلم والديانة. اذا لماذا نذكر هذا الكلام؟ نذكره حتى نبين انه لا يصح ان ينظر للدين على انه هو انعكاس لمواقف البشر ايا كانوا بعد الانبياء والرسل طبعا. وبعد اجماعهم لن يجمعهم معصوم. ما وراء ذلك عنصر البشرية وما فيها من اخطاء وما فيها من تفاوت في القدرات في الاجتهاد في الديانة حتى احيانا كل هذا يكون موجودا فلا معنى لان نقفز من خطأ بشري الى الطعن في الدين نفسه او التشكك في الدين نفسه هذا هو المقصد الاساس من ذكر هذه القضية واذا فهم قطع باب ان يتوسل بمواقف بعض العلماء سواء كانت مواقف اجتهادية او حتى مواقف اصابوا فيها او حتى مواقف على العكس اخطأوا فيها او حتى ربما بعضهم اثم فيها. لا علاقة بين ذلك كله وبين النظر الدين من هذا المنظار. فهم في دائرة البشرية وفي دائرة الاجتها وربما حتى خرجوا الى دائرة الخطأ او حتى احيانا الى دائرة الاثم وهذه دائرة مرتبطة ببشريتهم لا تعكس بالضرورة نفس الدين الذي انزله الله عز وجل وان كنا مأمورين باتباعهم في الجملة والاهتداء بهم لكن دون ان نغلو فيهم ونفعل ما فعل اهل الكتاب حين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله. هذا من باب الاحتياط الشديد حتى يعلم الانسان ان قضية اي شيء سواء كان هو فعلا خطأ او هو ظن انه خطأ هذه قضية منفصلة تماما. عن نفس الدين ولكن ما هو الموقف الصحيح المتزن فعلا؟ الموقف الصحيح المتزن فعلا هو ان نفهم خلفيات الاجتهاد وحتى خلفيات الخطأ في الاجتهاد لان الاصل والاغلب ان هناك خلفيات يعتبر وفقها هذا الاجتهاد سائغا اصلا يعني ليس فقط انه من باب العذر لا هو اصلا سائغ يعني عندما يبذل العالم جهده في فهم الدليل ثم في فهم الواقع ثم في محاولة تنزيل هذا الدليل على الواقع تنزيلا صحيحا مع مراعاة مقاصد الشريعة والنظر فيما تؤول اليه الاشياء فانه حينئذ يكون معذورا بل مأجورا بين الاجر والاجرين والا معنى غير ذلك معناها ان نطالبه ان يكون معصوما ويزيد الامر هذا وضوحا اذا فهمنا طبيعته الاجتهاد. يعني القضايا القطعية اصلا لا مجال فيها للاجتهاد. نحن نتحدث عن قضايا النص يحتمل فيها في بعظ مدلولاته ان يفهم باكثر من طريقة. نعم هناك مرجحات وهناك معايير نستطيع من خلالها التوصل للصواب لكن احتمالية فهم الاخر ليست احتمالية منفية

بالقطع. من هنا تتسع يتسع الامر من جهة العذر. ان اتفهم وصول المجتهد لرأي اخر في هذا الموضوع. وان كنا قد نخطئه وفقا لدراسة المسألة بعمق وتحريرها وكذا. ايضا بعض الادلة اصلا توصف بانها ادلة اجتهادية. يعني طبيعة الدليل مرتبط بعملية الاجتهاد. لان عندما ننظر في موضوع القياس. القياس مرتبط بانك انت تنظر في حكم اصلي وارد في الشريعة منصوص عليه وتحاول فهم علة علة هذا الحكم. الوصف الذي يدور معه الحكم اما لكون الشرع نص عليه او لكونه مناسبا للمقصد من الحكم. اذا القضية فيها اعمال للعقل فهم للمقاصد. بعد ذلك الفرع هل هو تتوفر فيه تلك العلة او لا؟ هذا نوع من الاجتهاد الاخر. ايضا تطبيق القواعد العامة وتنزيله على واقعة معينة يحتاج الى اجتهاد. فعندما ينطلق العالم من ان الضرر محرم في الشريعة ومن في الشريعة. ثم تعرض عليه واقعة ويقال له ان فيها ضرر ثم يعني قد يكون هناك رأي اخر بانها ليست مضرة. فهنا يعني يدخل في عملية تحرير ما هو الواقع؟ فتتعقد عملية الاجتهاد. لذلك فقه النوازل فقه فيه شيء من الصعوبة وفيه شيء من الدقة ويحتاج الى تأني ونظر. ومن الطبيعي ان يقع فيه تفاوت واخطاء. بعض الامور يتوقع انها عند التطبيق ينشأ عنها مفاسد. وقد يكون ايضا من ينشأ عنها مصالح. فما هو الارجح من تلك المصالح والمفاسد؟ قضية هنا تعقدت اكثر واكثر لانها لم تعد فقط نظرا في وجود شيء في الواقع ضرر مثلا او كذا لا اصبحت عملية موازنة ايضا. عندما يصل الاجتهاد لهذه المرحلة من الدقة من الطبيعي ان يكون هناك تفاوت في المواقف. طيب بعد هذا الاجتهاد حكم من العلماء بتحريم مسألة ولنقل مثلا وهي القضية الشهيرة سد الذرائع معلوم انه لا يلتفت للذرائع الضعيفة النادرة الحدوث خاصة اذا كان المسألة فيها مصلحة راجحة ومعلومة ايضا انه لا يختلف في تحريم شيء يؤدي قطعا او بظن غالب قوي الى المحرم طيب ماذا نفعل لو نزل الامر عن هذا ولم يصل الى ذاك؟ يعني صارت المسألة تتجاذبها الانظار لا هي بالقطعية او القريبة من القطع ولا هي ايضا من الجهة الاخرى التي انتفت فيها المفاسد من الجهة المقابلة من الطبيعي ايضا ان يقع هناك تفاوت بل ان هذه الاعتبارات الواقعية قابلة اصلا للتغير. ولذلك قال بعض الفقهاء لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان. قد تتغير مقادير النفقة مثلا في بعض الاحيان لانه مقدار النفقة يعني مرتبط بالعرف. ايضا مقدار الضرر مقادير الضرر والنظر في المصالح والمفاسد. ايضا قابل للتغير. فلا يصح ان ننظر لاي تغير في الفتوى بانه بالضرورة تبديل ولعب بالدين او خضوع مثلا لضغوط او كذا وفي نفس الوقت كما قلنا سابقا نحن نتحدث في دائرة البشرية فلا ننفي انه قد تقع بعض هذه الاشياء ولكن الاصل حسن الظن وخاصة عندما يكون واظح ان القضية فيها مجال لتجاذب الانظار والحقيقة ان مشكلة بعض الناس انه يريد الدقة في كل الامور ويكره السطحية في كل الامور الا ما عند عندما يأتي الامر لامر ديني يريد الامور ان تؤخذ بشكل سريع وسهل وتفهم مباشرة وتطبق بشكل تلقائي ولا يوجد فيها تعقيد لا يوجد فيها عمق لا يوجد فيها اعتبارات لا يوجد فيها موازنات هذا معنى كلام بعض الناس عندما يقول لماذا لا يكون الامر واضح؟ لماذا لا يكون مباشرة لفتوى واحدة وموحدة والجميع على رأي واحد وكذا؟ اذا انت يعني في الحقيقة تريد ان تسطح الامور وتختزلها ولا تريد منا ان نراعي كل الاعتبارات وندرسها ونوازن بينها وتزيد على ذلك بانه عندما يقع خطأ او تغير في الرأي وكذا مباشرة تقفز الى الحكم بان هذا الشخص ربما يكون اصلا متلاعب او كذا. وقد يكون من محركات هذا المسلك في التعامل الخاطئ مع الفتاوى وتغيرها وكذا. هو ان بعض الناس لا يريد ان يتقبل حقيقة ان الناس لن يكونوا متخصصين في الشريعة كلهم. سيبقى هناك اناس يجهلون كثير من التفاصيل التي تتعلق خاصة بموضوع الاجتهاد وخاصة ما يتعلق

بالاجتهاد في النوازل. فمن يقاوم هذه الحقيقة ويريد ان ينكرها يحاول ان يدفع علم الاعتراف بالجهل وعمق هذا الموضوع وعدم القدرة على الكلام فيه بسهولة. بان يصور يصوره بشكل سطحي او يتأفف من كونه ليس سطحيا ويبدأ يهاجم حملته واهله وهذا غير صحيح. طبعا في الجهة المقابلة انا ايضا لا اريد ان يفهم من كلامي ان كل تصرف وكل فتوى وكل نظر هو بالضرورة عميق ومعقد ونابع عن موازنات وكذا لا هناك نظرات احيانا سطحية هناك تقصير احيانا في عملية الاجتهاد هناك احيانا انحراف ربما حتى كما اشرت سابقا لكن لا نعود بهذه التوصيفات السلبية طبعا ستكون احيانا الاشياء السلبية تكون واقعية احنا ما ننكر هذا لكن لا نعود بهذه التوصيفات السلبية الى وصف جميع العلماء اخذ موقف يعني عام جدا من العلماء لا تخصيص فيه لان هذا يعود بالتشكيك في حفظ الله عز وجل لهذا الدين وعصمته لهذه الامة بمجموعها وهي وهو اصل قطعي دلت عليه النصوص الكثيرة. فهذا الاسلوب في النظر يرجع الى تضليل الامة جميعها ونفي الخيرية مطلقا فيها بل في الحقيقة يرجع حتى وان كان كثير من الناس لا يعي هذا الى الطعن في نفس الدين فهو بين امرين اما ان الدين هذا ليس محكم وليس مبين وليس محفوظا ونحو ذلك من المعاني ان الامة كلها اطبقت على اتباع الهوى والضلالة. ولم يعد فيها اي خير يذكر. وكلا المسلكين في البطلان. لو انصف الانسان لوجد انه في الواقع لا ينطبق على جميع العلماء انهم غيروا في الفتاوى. يعني حتى لو اخذنا بهذه النظرة السطحية التي تربط تغير الفتاوى نوع من الانحراف او الاشكال الكبير نقول ليس الكل غير في الفتاوى وانما التغيير منسوب الى البعض مع اننا لا نقر بان هذا البعض بالضرورة تغييره يعبر عن انحراف او اشكال كثير وحتى لو اراد البعض النظر الى السياق الظرفي الذي حدثت فيه بعض التغييرات ايضا نقول لو انصف سيجد ان هناك بعض القضايا تتأثر او يفترض ان تتأثر بنفس السياق الظرفي ولم تتغير فيها الفتوى. الاشياء مثلا القديمة التي يعني لا تزال الفتاوى فيها ثابتة. بشكل كبير جدا. موضوع ربا البنوك مثلا تكلم العلماء فيه قديما جدا هو موضوع حيوي حصلت فيه مستجدات كثيرة وتفاصيل كثيرة وفيه قدر كبير من الضغط عندما ينظر للاقتصاد العالمي وتأثيره وكذا ومع ذلك لا زال عامة علماء المسلمين يقفون موقفا صلبا في موضوع الربا اذا القضية لا ترجع بالضرورة الى انحرافات وانما قد تكون فعلا احيانا قضية قناعات وقد توجد الانحرافات ايضا لكن لا نعمم الظاهرة ونجعل الاصل هو سوء الظن. بل كما يفعل البعض يعود بالتشكيك على اصل منظومة العلم الشرعي واصوله وقواعده ونحو ذلك. اذا النظرة المتوازنة في نظري لهذا الموضوع بان يكون حسن الظن هو الاصل. ندرك صعوبة العملية الاجتهادية خاصة في مثل هذه المسائل الدقيقة التي تكون من باب فقه النوازل. يتسع الافق عندنا لتعدد الاجتهادات في مثل هذه القضايا القابلة لذلك. ندرك ان الخطأ او صاحب الخطأ قد يكون معذورا. واخيرا حتى لو ضاقت الدنيا الا بتخطئته وتأثيمه. فان هذا لا يقلب الى ظاهرة عامة وتعميم جائر وفي نفس الوقت يفصل عن نفس الدين و ايضا يدرك الانسان انه لن يكون متخصصا في فروع الشريعة ودقائقها كل احد من الناس وانه ليس كل احد من الناس مكلف بهذا وانه يسعه الاخذ بالواضح للمحكمات البينات وتجنب المشتبهات والتأني وانه ليس بالضرورة ان يكون له رأي في كل قضية. ويرجع فيما اشكل عليه لاهل الاختصاص يسألهم. ويتحرى لدينه. من يثق في علمه وديانته؟ فان اتضح الامر فالحمد لله والا وسعه ان يتوقف. فلا ينبغي ننجر مع مصيبة العصر هذه داء حب الشهرة وان يتحول الانسان الى عالم بكل شيء في وسائل التواصل الحقيقة في نظري ان من له رأي في كل قضية تحصل ربما هذا دليل على طيشه وسفاهة عقله وسطحيته في

حين انه يريد بذلك ان يظهر انه يمتلك ثقافة واسعة وعمقا وسدادا في الرأي. الحاصل اننا في زمان وهذه اشارة اخيرة ليست من باب التكرار بل هي اشارة مهمة. نحن في زمان كثرت فيه الفتن صوبت فيه السهام للشريعة. بل يجري على قدم وساق التلاعب بالشريعة وتصدير المنحرفين للحديث باسمها وتضليل الناس عن حقائقها وتشكيكهم فيها باساليب ماكرة ملتوية خبيثة واصبحت الالة الاعلامية هي التي ترفع وتضع فاختلت المعايير والموازين فاصبح الناس يقرأون المشهد كما يصور لهم لا كما هو واقع نفس الامر. وبالتالي فان كثيرا من التعميمات وكثيرا من التصورات هي مبنية على الواقع الافتراضي لا الواقع الحقيقي. وان كان هذا الواقع الافتراضي قد صار يشغل المساحة الاكبر من تفكيرنا واهتمامنا. لكن الحقيقة ان من يبحث وراء البهرجات يجد العلم محفوظا واهله قائمون به والحق دلائله منصوبة لكن يحتاج الانسان الى جهد ومجاهدة ويتعبد لله عز وجل بذلك فاحتاج الى ان يجاهد هواه اما من يختار الكسل المعرفي والميل مع كل صيحة وتصديق كل ناعق فهذا لا يلومنه الا نفسه وما الالتباس في الحقيقة الا في عينه لا في حقيقة الامر والا بسبب تفريطه. فلا تخض يا اخي فيما لا تحسن. واذا اردت ان تخوض في هذه القضايا فخضها بحق ولو اخذ منك ذلك سنوات طوال. تطلب لكل مسألة اصولها التي ترجع اليها ولتدرك تلك الاصول وتفهمها قد تدرس علوما باكملها. ولتدرس تلك العلوم ستحتاج الى مقدماتها ومباحثها ومسائلها وتحرير اشكالاتها وغير ذلك مما تفنى فيه الاعمار. فاذا ابيت كل ذلك وابيت الا الاستسهال والتصدر لكل نازلة فلا ترجع بعد ذلك باللوم الا على نفسك.

فالصبر الصبر ايها الناس تمسكوا بمحكمات الدين.

وما كان عليه النبي الكريم واصحابه المتبعون لهداه ومن يتبعهم باحسان الى يوم الدين

واعلموا انه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [ان شر الأمور محدثاتها] [ومن احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد]

امشوا مع القرآن يبين لكم الصراط المستقيم ويكشف لكم سبل المغضوب عليه والضالين يكشف الغطاء عن أسباب الانحراف الدقيقة ويضرب الامثال ويقص القصص الحق فلا تخدعوا عنه ببهرجات الالفاظ وبريق الصور فهو والله العصمة عند الفتن وهو حبل الله الممدود

فتمسكوا به واعتصموا به ومن اعتصم بالله فقد هدي الى الصراط المستقيم

وصلى الله على نبينا محمد واله وصحبه وسلم